

# محدّدات التفاعل الإقليمي في الشرق الأوسط بعد ثورات الربيع العربي

الدكتور معتز عبد القادر محمد

قسم العلاقات الدولية والدبلوماسية

• تمر منطقة الشرق الأوسط بمرحلة تاريخية تنطوي على تغييرات عنيفة ودرامية لأسس ومقومات هذه المنطقة، التي كانت قد قامت واستقرت وجرت على أساسها تفاعلات الحياة فيها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. ومن المرجح أن تقلصت المخاض التي تجري حاليا، خصوصا منذ فشل ثورات الربيع العربي في بناء نظم ديمقراطية، وإقامة قواعد للعدالة والتنمية المستدامة، سوف تؤدي إلى تغييرات وأسعة النطاق في ملامح المنطقة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. وقد بات من المؤكد أن الحدود السياسية لعدد من دول المنطقة أصبحت قابلة للتعديل مع انهيار الدولة في بلدان مثل سوريا وليبيا واليمن وفشل الدولة في معظم البلدان العربية في المنطقة وزيادة حجم وفاعلية النفوذ الإقليمي للدول غير العربية في التفاعلات الداخلية في المنطقة، ووجود الولايات المتحدة كقيادة عملية بقوة الأمر الواقع لعمليات التدخل العسكري المباشر على المستوى الإقليمي.

• ويمكن القول بأن نمط التفاعلات الحالي في منطقة الشرق الأوسط يخضع لسيطرة العوامل التالية:

• **1- فشل الدولة في العالم العربي بشكل عام وانهارها تماما في عدد من البلدان الرئيسية** التي كانت تقوم بدور مؤثر في النظام الإقليمي العربي السابق لقيام ثورات الربيع العربي في عام 2011. وتبدو ملامح فشل الدولة العربية في ثلاث ظواهر رئيسية. الظاهرة الأولى هي: عجز الدولة عن حماية وحدة أراضيها ونقصان ممارسة سلطات السيادة داخل الإقليم بأكمله، وهو ما يبدو جليا في سوريا وليبيا واليمن والعراق. أما الظاهرة الثانية فهي عجز الدولة عن فرض القانون والنظام في كل الإقليم الذي تتكون منه الدولة، وهو ما أدى إلى انتشار ظاهرة الفوضى السياسية والاقتصادية والاجتماعية بمقدار يتفاوت من دولة إلى أخرى في المنطقة. أما الظاهرة الثالثة فهي تتعلق في انهيار الحق الحصري للدولة في ملكية السلاح، وإنشاء القوات العسكرية أو شبه العسكرية. ويبدو هذا جليا في الصومال وفي لبنان وفي العراق وسوريا واليمن وليبيا ومصر والجزائر والسودان.

• 2- زيادة فاعلية ونبفوذ الأءوار غير العربية في التفاعلات داخل المنطقة على حساب الءور العربي. وفي هذا السياق فقء تحولت جامعة الءول العربية إلى قزم أو إلى مجرد شبء قيمة له في التفاعلات الإقليمية بسبب العجز الءي تعاني منه الءول الأعضاء في الجامعة العربية. وفي هذا السياق نرى أنه قد تم تهميش الءور العربي إلى أءنى حد في التفاعلات السياسية داخل العراق، واخضاع الءور العربي في سوريا لقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وفي ليبيا والقرن الأفريقي لءلف شمال الأطلنطي وإيطاليا. إن إسرائيل وءركيا وإيران إلى جانب الولايات المتحدة وءلف الأطلنطي هي التي تلعب الءور الفاعل والمؤثر في التفاعلات الإقليمية داخل منطقة الشرق الأوسط على حساب الءول العربية التي كانت تلعب ءورا قيائيا فيما مضى.

• 3- زيادة فاعلية وقوة المنظمات والجماعات غير الحكومية المسلحة وغير المسلحة التي تم تصنيعها بعناية منذ بدايات القرن الحالي على حساب قوة الدولة الرسمية في الدول العربية بشكل عام. ونتيجة للانهايار المفاجئ والحاد الذي تعرضت له الدولة في الدول العربية التي شهدت انفجار ثورات الربيع العربي، فقد استطاعت الجماعات غير الحكومية السياسية المنظمة أن تقوم بسرعة بعملية ملء الفراغ السياسي الناشئ عن انهيار الدولة بمكوناتها الأمنية والسياسية. ثم أدت التفاعلات السياسية اللاحقة إلى بروز القوة المنظمة للجماعات غير الحكومية المسلحة، والتي بلغت أقصى تجلياتها في ظهور قوة تنظيم الدولة الإسلامية في العراق وبلاد الشام (داعش) وتمدد هذا التنظيم من منطقة ظهوره الأصلية إلى مناطق الصراع السياسي الأخرى في شمال أفريقيا وشبه الجزيرة العربية ومصر.

• 4- زيادة فاعلية وقوة المنظمات والجماعات غير الحكومية المسلحة وغير المسلحة التي تم تصنيفها بعناية منذ بدايات القرن الحالي على حساب قوة الدولة الرسمية في الدول العربية بشكل عام. ونتيجة للانهايار المفاجئ والحاد الذي تعرضت له الدولة في الدول العربية التي شهدت انفجار ثورات الربيع العربي، فقد استطاعت الجماعات غير الحكومية السياسية المنظمة أن تقوم بسرعة بعملية ملء الفراغ السياسي الناشئ عن انهيار الدولة بمكوناتها الأمنية والسياسية.

- - لقد أصبحت الجماعات غير الحكومية السياسية والمسلحة لاعبا رئيسيا في عملية التفاعلات الإقليمية في منطقة الشرق الأوسط. وسوف تسهم هذه الجماعات في تشكيل صورة الشرق الأوسط الجديد حيث أصبحت طرفا رئيسيا من أطراف الصراع التي يستحيل على أي عملية سياسية أن تتجاهلها،

• - **حظر استخدام القوة العسكرية للدولة خارج حدودها، وإصرار الولايات المتحدة الأمريكية على تقييد حركة القوة العسكرية للدول العربية فيما وراء حدود كل منها، وعدم السماح لاستمرار أي تحالف عسكري إقليمي خارج نطاق المظلة العسكرية الأمريكية. ويرتبط هذا المبدأ بميزان مختل في تحديد العدو المستهدف لأي عملية عسكرية. فالولايات المتحدة تقود تحالفا دوليا للحرب على داعش في العراق وفي سوريا، ولكنها تمنع في المشاركة في تحالف عسكري للحرب على داعش في سيناء أو في ليبيا أو في غيرها من المناطق التي تظهر فيها داعش لقوة قتالية رئيسية.**

• لقد دخلنا فعليا إلى عصر أفول الدولة العربية التقليدية التي نشأت بحدودها السياسية وطبيعة أنظمتها الحاكمة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى حتى الآن.

• إن هذه المقومات الحاكمة لما عداها من مقومات التفاعل الإقليمي ستؤثر بأشكال مباشرة وغير مباشرة على توازنات القوة بالمعنى الشامل للكلمة، وعدم اقتصرها على التوازن العسكري فقط خلال السنوات المقبلة. وهذا يدعونا إلى إعادة تأمل عناصر ومقومات القوة في منطقة الشرق الأوسط، ومحاولة رسم مسارات أو سيناريوهات تقريبية للمستقبل القريب (3 إلى 5 سنوات) بغرض استعراض خريطة مكونات التفاعلات الإقليمية الحالية والمقبلة، وتحديد ما فيها من مصادر القوة ومن ثقب العجز. إن التاريخ لم يعد بالضرورة حتمية مجردة، وإنما يمكن في كل وقت وبمقدار يختلف من حالة إلى أخرى "تصنيع التاريخ" ودفعه إلى المسار الذي يتفق مع إرادة الفعل المبنية على حرية الاختيار

# القيود التي تحكم طبيعة تحليل توازنات القوى في الشرق الأوسط في الوقت الحاضر؟

- 1- تمر الدول العربية بمرحلة انتقالية صعبة بعد عقود طويلة من الجمود السياسي. وبسبب نقص الثقة العميق والذي يصل إلى درجة فقدان الثقة في النخب أو الأسر الحاكمة في الدول العربية، فإن هناك حالة من التفسخ السياسي، الأمر الذي يجعل الإصلاح أكثر صعوبة. وقد أظهرت تجربة السنوات الماضية منذ اندلاع ثورات الربيع العربي وما تلاها من اضطرابات، أن الشعوب راحت تتفنن في ابتزاز النخب والأسر الحاكمة، وأن الأخيرة لجأت في المقابل للرد بخلطة سياسية واقتصادية تتكون من محاولة امتصاص الغضب بحلول قصيرة الأجل ترضى الشعوب الغاضبة.
- 2- لا يزال الاستقطاب السياسي والاقتصادي والاجتماعي والمؤسسي الرئيسي في المجتمعات العربية قيد التحول هو بين قوى الاستبداد الديني، ممثلة في الإخوان المسلمين والجماعات السلفية من ناحية وبين تحالف القوى العسكرية ورجال الأعمال والبيروقراطية القديمة في جهاز الدولة في الناحية المقابلة.

- - حول الدول غير العربية في الشرق الأوسط من مراحل عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والأمني إلى مراحل "اليقين" بشأن الأمن والاستقرار والنمو. وعلى الرغم من تفاوت درجات اليقين بين دول مثل إسرائيل (أعلى درجات اليقين) وإيران وتركيا، التي تتمتع بدرجة يقين أقل نظرا لتفاوت علاقاتها بالنظام الدولي واختلاف درجة نموها السياسي واستقرارها، وكذلك معدلات نموها وعلاقتها بالاقتصاد العالمي. هناك إذن انقسام واضح من حيث درجة "اليقين" في الشرق الأوسط، بين الدول العربية التي تنخفض فيها معدلات اليقين والدول غير العربية التي تتمتع بمؤشرات "يقين" أقوى سياسيا واقتصاديا واجتماعيا.

# خاتمة

- - تتمتع الدول غير العربية بظاهرة ما يمكن تسميه "فائض القوة" (excess of power) أو (power surplus) في مقابل حالة "عجز القوة" (power deficit) التي تعاني منها الدول العربية الرئيسية. وقد استفادت الدول ذات القوة الفائضة من حالة الضعف وعجز القوة في الدول المجاورة إلى حدود كبيرة في السنوات الأخيرة. وظهر هذا بوضوح في سعي الدول ذات "فائض القوة" إلى طلب النفوذ وإلى التوسع الإقليمي على حساب دول العجز. وفي هذا السياق وجدت إيران مجالا فسيحا لنفوذها في العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والبحرين واليمن. كذلك فإن تركيا أيضا سعت إلى طلب زيادة نفوذها في سوريا وفي العراق وتوسيع نطاق مصالحها في الدول العربية خصوصا دول شمال أفريقيا. وبالنظر إلى تعقيدات الوضع الحالي على الأصعدة المحلية والإقليمية والدولية، فإن فائض القوة لدى إسرائيل وإيران وتركيا، يمنح الدول غير العربية في المنطقة ميزة إقليمية (regional advantage) على حساب الدول العربية التي تعاني من عجز متزايد في قوتها.